

صورة من الأبواب التري

قبر من الأوحال

للكاتب التركي خالد ضيا

بقلم الأستاذ برهان الدين الراجستاني

قد مضى عليه الآن بضع سنوات وهو يخرج كل صباح حاملاً هذه الرسائل التي تملأ حقيقته

إنه تعب من هذه الحياة ، وسئم جر ساقيه المتعبتين من كثرة المشي من إفريز إلى إفريز يتلسس الأبواب

نعم بلغ به الملل والسأم الآن حد النفور من توزيع هذه التري من الأوراق التي تأتي من كل ركن من أركان العالم وتقتضيه الجولان من شارع إلى شارع ومن باب إلى باب

مضى عليه الآن أمد طويل وهو على حاله هذه : يحترق تحت أشعة الشمس اللاخنة وتكاد أنفاسه تنقطع من حر السموم التي تزدت باللب كأنها فيجح جهنم

وفي الشتاء يتلقى ميازيب السماء التي تنسله من فرقه إلى قدمه . ويجر رجليه اللتين كاد يفتنهما البرد وسط الأوحال

إنه كره التسكع في أزقة هذه المدينة العظيمة التي لا حصر لها . كما كره منظر حقيقته التي لا تفارق جنبه . نعم إنه سئم السير آلاف الخطوات كل يوم ليوصل الأخبار إلى هذا وذاك

سنين ... إن سلسلة أيام هذه السنين الطويلة الخالية من الإنصاف قد صرت عليه وهي تنزل به الضربة تلو الضربة

في كل يوم . وتحطم آماله وتهدم صرح أمانيه وتدفعها في الرغام . مسكين ! إنه لا يكاد يجد بعض الراحة والهدوء لأعصابه المحطمة

في ظلمة الليل حتى تقول له الشمس التي تشرق في مطلع كل نهار : « إنك اليوم أيضاً - كما كنت أمس وكما كنت في كل

الأيام الخالية - موزع بريد وستبقى كذلك مادمت حيّاً »

آه من هذه الحياة المريرة التي حكم عليه أن يقضيها متسكماً

الساعات الطوال ليجد شخصاً من الأشخاص ، يبحث عن أرقام المنازل تارة ، ويسأل أصحاب الدكاكين والحوانيت عن اسمه تارة أخرى . ويسير بخطوات مضطربة في منحنيات هذه الشوارع والأسواق التي لا نهاية لها

ها هو ذا قد نارت ثورته على الحياة وانفجر بركان تقمته من جراء هذا المطر الغزير الذي لا يرحم ، والذي ألصق أثوابه المبللة بمظامه ونفذ من حذائه الممزق إلى جواربه

إنه لم ير حاجة إلى الاحتماء في مكان ما ولم يحاول الهرب

من هذا المطر المنهمر وكأنه يريد مطاردته - حتى يخفف بعض أذاه عنه . بل جلس على حافة أحد تلك الحوانيت المقلقة وأخذ يتأمل هذه الطبيعة الثائرة . هذا الشارع الذي يخيل لناظره

- من هول المطر وشدته - أنه أمام نهر من أنهار جهنم إنان فيضانه . هذه الأوحال التي تفل وتغذف بحجاب أسود من شدة

وقع قطرات المطر . وبينما هو في تأملاته رأى أولئك الذين يسرون في سكرون ودعة مستظلين بمظلاتهم من غير أن تلوث الأوحال

أرجلهم ، ولا أن تبلل الأمطار أثوابهم . ثم رأى تلك السيارات التي تشق الأوحال وتسير مندفة كالسيل . لا جرم أن المطر لم

يكن له أثر بالنسبة إلى هؤلاء وأولئك . إن أصحاب هذه المظلات وإن أرباب هذه السيارات هم أصحاب هذه الرسائل التي تملأ

حقيقته . من يكون هو وما قيمته ومقداره بين هؤلاء وأولئك في وسط هذه الحياة الصاخبة ؟ هل جاء إلى هذه الدنيا مجرد

حمل رسائل هؤلاء السادة وتبليغها إليهم ؟

إنه لم يعد ينظر إلى الشارع وما فيه ، بل حول نظره إلى قطرات الماء التي كانت تتساقط حوله من أطراف ملبسه الممزقة ، وإلى

حذائه الذي يخيل لرائيه أنه ينتحب تحت نقاب من العلين ! ... آه من هذه الرسائل ! هذه الأشياء التي تأتي من أي إنسان

وتذهب إلى أي إنسان ! ... كان المسكين في حاجة ملحة إلى رسالة من هذه الرسائل ،

لأنه لم يلقى رسالة خاصة مدة حياته كلها ، بل كان مكلفاً

كان بائساً حقاً . فلم يكن له أن ينتظر وصول رسالة باسمه من أحد في يوم من الأيام

وعند ما وصل إلى هذا الحد من تأملاته وخواطره كان المطر لا يزال يتساقط بشدة فوق طربوشه اللبل وتصدر قطراته إلى وجنتيه فتملك هذا الموزع السكين البائس هذا القلب الحزين . هذا الذي فقد كل أمل في الحياة تملكه شعور قوي من اليأس العميق والألم المبرح والحزن الشديد . وتغنى لو يستطيع اقتلاع هذه الحقيبة التي تحفظ رسائل الآخرين من على عنقه وقذفها في الهواء . هذه الحقيبة المعلقة برقبته بسلسلة لا تطاق كأيها — لثقلها — تريد أن تجتذب رأسه إلى أسفل حق تلتصقه بالأرض

إنه يتمنى أن يدوس هذه الحقيبة برجليه حتى تتمزق إرباً إرباً وتنسحق سحقاً !...

وبعد ذلك يرجو — ليتال بمض الراحة — أن ينغمس في هذه الأحوال التي تنشق كالقبر ثم تلتئم كلما خاضها خائض .
نعم هنا وفي هذه الأحوال يريد أن يمد رقبته تحت مجلات السيارات ويموت

يريد أن يُدفن في هذه الأحوال
إنه يتمنى قبراً من الأحوال

برهامه الدرية الراغباني

رسائل الآخرين فقط . كان وحيداً لا أهل له ولا أقرباء فأنى له بكتاب يأتيه أو ينتظره ؟

وكان كلما فتح هذه الحقيبة التي عملاً كل يوم وتفرغ أو أقفلها أرسل من أعماق قلبه آهة حزينة طويلة . كان يتحسر على هذه الأشياء التي تمر بين يديه كل يوم من سنين طويلة ويتحرق شوقاً إليها . ماذا كان يحصل لو أن أحد هذه الرسائل — في الفينة بعد الفينة — كان باسمه وله خاصة ؟ لا جرم كانت تكون نوعاً من التسلية تخفف بعض أعباء الحياة عن كاهله

ماذا في هذه الرسائل ، وما هي الأسرار التي تخفيها في طياتها ؟ إنه يعرف سيدة تنتظره دائماً في مدخل منزلها في رفاق بعيد طويل ، لأنها كانت تتلقى رسائل من ولدها ويعرف فتاة في كلية الطب تأخذ كل أسبوع ثلاث .

أو أربع رسائل دفعة واحدة . وكان يراها دائماً تسارع إلى غلاف ارجواني وتفضنه دون بقية الرسائل وبداهة ترتمشان .

وعلى مر الأيام ألف هذه الرسائل وكسب شيئاً من المراتبة من طول التكرار وكثرة الممارسة ، فأخذ يفهم أسرارها ومحتوياتها المختلفة ، فكان يعرف مضامينها من خطوطها تارة ومن أسماء أصحابها تارة أخرى . من ألوان أغلفتها والروائح المنبثقة من أوراقها المظرة في بعض الأحيان

نعم بدأ يعرف هؤلاء الذين يتبادلون الرسائل فيما بينهم ، أولئك الآباء والأبناء والأزواج والزوجات

وهؤلاء الشبان من الفتيان والفتيات الذين يتبادلون عواطف الحب ويتساقون أكواس المشق والفرام

نعم أخذ يفهم أولئك الذين يمرون أمامه بمظلاتهم وسياراتهم من غير أن يكونوا مثقلين مثله بمقائب مملوءة برسائل الآخرين . . .

كان يفهم كل هؤلاء السادة أصحاب هذه الرسائل اللينة وكان في نفس الوقت يشعر شعوراً قوياً بأنه الوحيد الذي لاحظ له من نعيم ولا نصيب من راحة وسط هذا العالم الصاخب وبين هؤلاء السادة المترفين المنعمين

قريباً :

تصدر الطبعة السابعة

من كتاب

آلام فرتر

بقلم الأستاذ

أحمد حمدي الزيات